



المنفى بعين الراوي الطفل ومركزية الأيقونة في قصة "أرض البرتقال الحزين" لغسان كنفاني

**The Exile through the Narrator's Eye: The Child and the
Centrality of the Icon in the Story «The Land of the Sad Oranges»**

نبيلة بونشادة*

مخبر تعليمية اللغات، المدرسة العليا للأساتذة، سطيف-الجزائر

n.bounechada@ens-setif

تاريخ النشر:

2025-01-31

تاريخ القبول:

2025-01-28

تاريخ الإرسال:

2024-08-31

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى تتبع مسارات تجربة المنفى وآثارها النفسية على استقرار الطفل الفلسطيني في قصة "أرض البرتقال الحزين" للكاتب الفلسطيني "غسان كنفاني" حيث صور لنا هواجس الألم والعجز التي واجهها بعد فقدانه الأمن والأمان، والتي تعمقت مع عدم مقاومة جيل الآباء لهذا القرار التعسفي من قبل السلطة اليهودية، فأحدث ذلك شرخا في لغة التواصل بين أفراد الأسرة الفلسطينية؛ لأن المنفى هو تقابل شعوري بين الوطن الأم أصل الحقيقة والمرجع، وبين المكان الآخر المجهول والضبابي وهذا التوصيف السردى أسنده الكاتب إلى "الطفل" الشاهد الذي وثق ما رآته عينه من معاناة أسرته بين ازدواجية الأمكنة. مولدا بذلك صيغا سردية ناتجة عن وعي بكشف المسكوت عنه وجعله أفقا واقعا يراهن على تموضع الحادثة في سياقها السياسي والاجتماعي. حيث يمتزج صوت الراوي بالكاتب فيبحثان عن بديل للانتماء عبر توثيق الحدث والصورة.

كلمات مفتاحية: المنفى؛ الطفل الشاهد؛ حبة البرتقال؛ الأيقونة.

Abstract: This study aims to investigate the experience of exile and its psychological effects on the stability of Palestinian children in the story «The Land of the Sad Oranges» by the Palestinian writer Ghassan KANAFANI. The writer portrays the anxieties of pain and helplessness faced by children after losing their safety, which deepened by the non-resistance of their parents' generation to the authority's arbitrary decision. This created a division in the language of communication within Palestinian

* المؤلف المرسل.

families, as exile became a psychological confrontation between the homeland – the origin of truth and reference – and the unfamiliar and foggy place. The author attributes this narrative description to the «child» witness, who beheld and documented the suffering of his family in different places, thus generating narrative expressions resulting from an awareness of the unspoken and making it a realistic horizon in its political and social contexts. The narrator's voice merges with that of the author as they seek an alternative to belonging through documenting the situation.

Keywords: exile; witness child; orange; icon

1 -مقدمة: شكلت السيرة الذاتية للكاتب الفلسطيني "غسان كنفاني" مرجعية سردية اشتغل عليها في أكثر من مدونة، والتي تقاطعت مع تجارب شعب بأكمله عايش المنفى بوصفها مسألة جوهرية تتعلق بهوية الانتماء التي خلقها حب الوطن والاشتياق إليه، فالعيش في حالة اغتراب طويلة، وفي مكان غريب هو بمثابة موت بطيء تتلاشى معه كل الأحلام في استمرار بناء الوطن بتفاصيله، وشوارعه، حيث توقفت هذه الوظائف وعُطلت بطريقة مفتعلة مؤسسة من طرف السياسة اليهودية، فأصبح البحث عن استمرار العلاقة بين الكاتب وأرضه ضرورة استراتيجية وحتمية كي يحافظ على كيانه ووجوده. لذا تحوّل الصراع السياسي الموروث حول القضية الفلسطينية مشروعا كتابيا واضح المسار عند "غسان كنفاني" يجمع بين المحافظة على الهوية الثقافية والتحرر السياسي، لذا كانت نصوصه السردية تتنافس وتتاضل دائرة العولمة الأمريكية التي تحاول الترويج لأنواع أخرى من الآداب المتخيلة عن الانحيازات الطبقية، والقومية الوطنية، مقابل نتاج أدبي عنصري ينطلق من أنانية ضيقة وفردية ظالمة التي يجد من ينحاز لها، غير أن "غسان كنفاني" وغيره من الكتاب الفلسطينيين لم يnehزموا بل هم نموذج التجربة الإبداعية ومرآة القضية الفلسطينية¹.

تعرّض "غسان كنفاني" للاغتيال مخلفا مقولات فكرية تؤمن بجذلية السياسي الثقافي الذي تحاول الإمبريالية الاستعمارية تفكيكها من خلال تشتيت المجتمع الفلسطيني حسب "وعد بلفور"، وتمزيق روابطه الاجتماعية وهويته بخلق مجموعات سكنية معزولة

عاجزة على بناء مجتمع ثقافي مكتمل المعالم. وهو تشخيص لتمثيلية مفتعلة مسبقا جسدها في قصته "أرض البرتقال الحزين" بمكونات سردية تأتي فكرتها في سياق التمثيل الفردي لأسرة فلسطينية تتوسع للتمثيل الجماعي. يلاحق أحداثها الراوي /الطفل حيث ينزوي الكلام إلى مساحة دلالية ترقبية يشوبها الفهم أحيانا وعدم الوضوح أحيانا أخرى، فتبدأ التساؤلات المحيرة تتوالى عندما يحاول وصف ملامح الوجوه والحركات التي شكلت سردا تتابعيا ضمن خطية زمكانية أفقية محورها ثنائية (الانتماء /اللانتماء) (الوطن /المنفى). وعليه تسعى هذه الورقية البحثية إلى مقارنة هذا النص القصصي بمقاربة إستيمولوجية تطبيقية للكشف عن الأثر النفسي الذي يتركه النفي على دور الشخصية وانفعالاتها وردود أفعالها بأسلوب الطفل الراوي الشاهد لهذه الأحداث التي عاشها مع أفراد أسرته مشكلا خصوصية لغوية لها أبعادها الجمالية في تخطيب قصة "أرض البرتقال الحزين"، لذا تتمحور الإشكالية حول كيفية تمثيل تجربة المنفى في خطاب الحكيم عند الطفل وهو راو للحدث. ماذا تمثل حبات البرتقال باعتبارها علامة تماثلية مشابهة للواقع في هذه القصة؟ ما مصير الهوية المتشظية في مكان جغرافي جديد يعيش فيها الفلسطيني الشعور بالاغتراب؟ معتمدين على المنهج الوصفي والسيميائي لقراءة سيرورة الحدث وعلاماته وأفقيته بين مكانين مختلفين شكلا بؤرة "أرض البرتقال الحزين".

2 المبحث الأول: ماهية المنفى و توثيقه سرديا:

إن المنتبج لمسارات السرد في الكتابات الفلسطينية يقر باشتغالها على قضايا أنتجت التحولات السياسية والحضارية للعالم الراهن، منها: الهوية الانقسام الجغرافي، الاستيطان، ثنائية الأنا والآخر، صراع الذات المنفية بين مركزية زائلة وهامشية مفروضة، ومن أهم القضايا التي تركزت في نصوص "غسان كنفاني" هي قضية "المنفى" الذي اعتبرها الناقد "إدوارد سعيد" "أكثر العقوبات قسوة يمكن أن تفرضها السلطة على فرد معين أو جماعة تحت مبررات وأسباب مختلفة تضيق من حرية المنفى وتدفعه إلى العزلة المدمرة.² وهو في كل حالاته له مرجعيته وخلفيته في التاريخ الإنساني. كما هو ممثل

مع الشاعر الروماني أوفيد في العصور القديمة والشاعر دانتي في العصر الوسيط.³ لكن المفهوم يتوسع مع مطلع القرن العشرين من الفردية إلى التهجير الجماعي، والنفي لشعوب أو جماعات من أراضيها مثل شعوب الهندو والأرمن، والفلسطينيين والسوريين. إنه من الصعب إيجاد مفهوم منجز للمنفى ثابت، لأن التعريف به وبحدوده مرتبط بمفاهيم اختلفت باختلاف الثقافة التي احتضنته وتبنته من طرف المفكرين، والمنظرين والأدباء، وهو في هذه الورقة البحثية المقصود به الارتحال والمفارقة كرها عن الوطن، حيث تنقطع الصلة الحميمية بين المنفي ومحيطه الثقافي والاجتماعي، ليدخل في علاقات فرضت هويتها عليه، فوجد نفسه مجبرا على الانتساب إلى رقعة جغرافية مخطط لها من قبل المؤسسات الاستيطانية التي فرضتها على الشعوب المستضعفة. وهذا الوضع الموصوف أفرز ردود أفعال متباينة سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي، أو الأدبي، وحتى الفني، كل حسب تخصصه ومجاله من زاوية أيديولوجية تشخص الواقع والحقائق كي تجهض مخططات الآخر في انقطاع المجتمع عن ذاكرته ولغته، وتدميرا لذاته الإنسانية وإسقاطا لجنسيته بنفيه عند حدود أراض مهجورة غير معترف به. وهذه الظاهرة تفاقمت جيلا بعد جيل مع الشعب الفلسطيني منذ إعلان قيام دولة إسرائيل 1948.

شكل المنفى تيمة مركزية هيمنت اشكالياتها على الكتابات الروائية والقصصية على حد سواء، وذلك لارتباطها بقضايا الانتماء والهوية، وسؤال العودة والاغتراب، والغربة الجسدية والروحية، والغيرية والطائفية. وإذا ارتبطت المسألة بالشعب الفلسطيني، فإن الطرح يأخذ بعدا متشابكا عبر عقود من الزمن تضاربت فيه الحقائق و تنازعات فيه وجهات النظر فأصبح إعادة الصورة إلى حكايتها الأصلية مطلبا أيديولوجيا يعيد قراءة التاريخ من جديد، حتى لا تنسى الحقائق، ولا تطمس في ظل خلخلة موازين العالم وتشطي هويات الوطن بين مدن متعددة .حتى يصبح الواد مبررا ومسموح به، بل يصبح

هو المطلب الشرعي المعلن عنه، لذا لإعادة قراءة الأدب الفلسطيني هو صعود متجدد لتيمة المنفى بصورها الموروثة عبر قراءات منتجة تراهن على أنسنة الشعب الفلسطيني، واقتربه من العالم المحسوس بعيدا عن التأليف وصنع عالم من الخرافة غير قابل للتصديق، أو تصويره في حالة إنسانية تنثير الشفقة والرثاء، وهي الصورة التي يسوق لها الاحتلال الإسرائيلي.

لذا فأول رؤية استراتيجية للإبداع السردي عند "غسان كنفاني" هو استحداث الشخصية الفلسطينية وابتعادها عن هلام الوهم والأسطورة. وتجريد المناضل من صورة الفدائي صانع الأعاجيب، لا يهزم ولا يقهر فأعاد أرضية الإنسان الفلسطيني صاحب القضية الذي يتعذب ويناضل دون ملل أو هروب لاسترجاع أرض البرتقال⁴. فالقوة لا تعني الانتصار دائما، بل قد يكون الانهزام ظاهريا مع المقاومة فكريا وجسديا هو الانتصار الحقيقي. لذا تتحدد العلاقة بين تيمة النفي والكتابة بالمشاهدة والعري، عن طريق كتابة نصوص تهمين على مفاصل سرديتها المرجعية الواقعية وهي ما ميزت إبداعاته.

إن الحديث عن تحلي فعل النفي بين ثنائية الأنا والآخر يفتح للسياق السردي التوقع بين الماهية والخصوصية لإدراك البعد الدلالي للشواهد والحثيات، والتي صاغ منها الكاتب فكرة الانفصال القسري عن المكان الأصل، لتجد الشخصية نفسها أمام ازدواجية الهوية الأولى ممتلئة ثقافيا وحضاريا لها خصوبة مرجعية لآلاف السنين، وأخرى ضبابية مجردة من كيانه تسكن أوطان جديدة على حوافها وحدودها، عراة في أجسادها تبحث عن مأوى تلجأ إليه، وهذا الموقع الجغرافي هو الشاهد التاريخي على شتات المجتمع الفلسطيني، مما جعل الوطن مهددا بالذوبان وتعدد الهويات.

يمثل تخطيب هذه التجارب في السرد القصصي والروائي نصا حاضرا مواز لنص غائب هو مرجعية الهوية وفكرة الامتلاك، والتنوع الحضاري الذي يدخل في حيز القيمة من أجلها تستمر المقاومة والرفض. وهذا ما جعل السرد يتناول موضوعاته بجرأة

وصراحة، يصور قضايا مختلطة بطين الأرض، ومخصصة بقضايا الواقع.⁵ سواء أكان مبدعا جعل من كتاباته فضاء لفضح كل الممارسات اللاإنسانية بكتابة بعض من محطات سيرته الذاتية، أو بتوظيف شخصيات تخيليه تجاور في واقعيتها صدق الحقيقة. ويؤكد ذلك "محمد برادة" من أن الهدف من تخيل بعضا من هذه المحطات "لا يتقصد به الكاتب حماية نفسه بقدر ما يروم التحلل الجزئي من هويته حتى لا تظل جاثمة عليه بثبوتيتها وأحاديتها"⁶

و"غسان كنفاني" يشغل من خلال "قصة أرض البرتقال" على التوثيق التاريخي لهجوم إسرائيل سنة 1948 على مدينته "عكا" فشهد كل التجاوزات على أسرته مما أدى إلى مغادرتها إلى مدينة "صيدا". وهذا التأسيس لفعل التنقل بين الأمكنة استثمره في قصته كي يعانق طفولته بطفولة الراوي لتتماهى التجارب، وتبتعد من منطقة الصمت والظلام إلى منطقة العري السياسي للآخر.

3 المبحث الثاني: عتبة العنوان:

فرضت القصة الفلسطينية حضورها بين عوالم البناء الجمالي والفني في توطيئها فكريا وبنويا، حيث نقلت للمتلقي أوصافا مختلفة للمراحل التاريخية التي عاشتها القضية الفلسطينية بماضيها، وحاضرها، ومستقبلها منتهجة رؤية مؤسسة تجمع بين الواقع والتخيل المجاور له. في سياق ابداعي تبدأ احياءاته من عتبة العنوان. ذلك أن أول علاقة تربط المتلقي بالنص هو عتبة العنوان وذلك لطاقته اللغوية المكثفة التي تثير في ذهنه تساؤلات عديدة حول شعور الطفل وهو يبتعد عن بيته وجيرانه، وأرضه المزروعة بأشجار البرتقال، وكيف تحوّلت إلى حالة شعورية حزينة تشعر بأنها بقيت غريبة غربة سكانها، إذ انتزعت من منبتها فتغير لونها وشكلها. فأية علاقة بين لذة البرتقال المؤقتة الموجهة للأكل، وهذا الارتباط الذي تحوّل إلى قضية هوية وانتماء؟ وبما أن طليعة العتبات النصية قابلة للاستتطاق فإن ايقاعه المتواتر سرديا بين العنوان الرئيس للمجموعة

القصصية" أرض البرتقال الحزين" والقصة النموذج ذاته يحقق مستوى دلالي وجمالي يبرز من خلال قراءة التركيب اللغوي لمستويات الجملة.

1.3 المطلب الأول: البنية التركيبية ودلالاتها لجملة "أرض البرتقال الحزين":

تحتل قصة "أرض البرتقال الحزين" الترتيب الثامن من المجموعة القصصية التي أراد منها "غسان كنفاني" أن تكون مرآة للواقع والذاكرة ومن اللغة أن تكون مجموعة من الانحناءات المتعددة أمام الألم الإنساني الذي يجسد في هذه المرأة.⁷ وقد أخذت نفس العنوان الرئيس لهذه المجموعة القصصية لتكون مركز الهوية البصرية للوجع الفلسطيني وهو لاجئ تاركا أرضه وذكرياته، ليتضاعف الوجع عندما يكون الطفل شاهدا ينقل بلغته ما تلتقطه عينه من حركة الأحداث والشخصيات، وثقل الزمن وضبابية المكان.

وبما أن العنوان هو نوع من التعالي النصي الذي يحدد مسار القراءة التي يمكن أن تبدأ بها الرؤيا الأولى للكتاب.⁸ فإن موقعه هندسة تركيبية دلالية ذات تأويل متعدد القراءات يطفح بشعرية متعالية علو أشجار البرتقال ذات التوصيف الانحرافي الموروث في نسق الثقافة الشعبية بأرض الزيتون المشبعة بدلالات إنسانية ارتحلت بين يدي أسر فلسطينية منفية مشتتة حزينة حزن حبة البرتقال المنفية معهم، فأصبحت تمثل مؤولا مركزيا للواقع الخطابي اللاجئ.

لذا نجد أن رؤية "غسان كنفاني" الإبداعية تأسست من رحم واقع الشعب الفلسطيني من خلال العتبة النصية للجملة الإسمية التي بنيت أولها بنكرة هي لفظة "أرض" الواقعة خبر مرفوع مضاف غير معرف على مستوى بنية الجملة، والتي توحى دلاليا بنفي تعيين الانتماء لهذه الأرض ووسمها بهوية شعبها اللاجئ الذي سلبت أرضه فنكرت واقعيًا، لكن المسكوت عنه والمغيب والمحذوف هو المبتدأ ضمير "هي"، والتي تعرف سياقيا وبنويًا بلفظة البرتقال المضاف إليه جرا للخبر، أما صفة "الحزين" فهي التي انحرقت بالخبر وحددت وجهته نحو الشعب الفلسطيني صاحب أرض البرتقال. لتتحقق المعادلة النصية للتركيب الإسنادي للعتبة النصية بالمعادلة التالية:

نكرة + معرفة + صفة ← فقدان الانتماء + البرتقال فاكهة مفصولة عن هويتها وأرضها + حزين ومنكسر

المبتدأ هي أرض فلسطين + الخبر هو الملفوظ القصصي للمتتاليات السردية بعين الراوي الطفل ومركزية حبة البرتقال

إن عتبة العنوان تختزل ما كان وليس ما سيكون، وهي حركة زمنية سابقة عن زمن الكتابة القصصية لأنها تجربة "غسان كنفاني" وآلاف الفلسطينيين الذين عاشوا المنفى بكل أشكاله وصوره، من زاوية تتجاوز الرؤية الحسية الواقعية إلى استنباط الشعور الواعي بحجم الفعل المسلط مقابل عجز الشخصيات من جيل الآباء على الرفض والنقاش أمام جيل آخر مثله الطفل /الراوي. وهذه المفارقة هي عصب السرد وبؤرته في قصة " أرض البرتقال الحزين".

4 المبحث الثالث: تيمة النفي وإدراجية المكان في قصة "أرض البرتقال الحزين":

إن ارتباط الإنسان بالمكان يرتقي لبعد فلسفي يصعب الاشتغال فيه دون معرفة ما يمثله بالنسبة له، فهو "ليس مجرد حيز يشغله بل هو ملازم لتاريخه وحضارته، وشاهد أمين على تطوره، فهو الإطار الذي يشهد تفاعله مع العالم ففيه يتحرك وبشكل أفكاره وقيمه"⁹ وتعد البداية الحقيقية للشعور من خطر فقدان المكان عند "غسان كنفاني" بعد النكبة الفلسطينية التي انطلقت الروايات العربية والقصصية إلى احتضانها حتى " أصبح الهم الوطني يحتل مساحات الصفحات كلها التي تطمح إلى التعبير عن تجربة الاقتلاع والنفي.. إلا أن مجمل الإنتاج الأدبي الذي أفرزته تلك المرحلة ظل موسوما بالحدة الانفعالية التي تجلّلتها حالة من الحزن، يطفو عليه إيقاع الحنين الرومانسي إلى المكان المفقود والإصرار المباشر الشعاري على العودة إلى الوطن.¹⁰ والكاتب كان على عاتقه مسؤولية كشف الواقع بمآسيه من زاوية تجاربه مع المنفى منذ صغره يترصد أحداث وطنه ومآسيه بجمالية مشحونة بألم الفقد.

1.4 المطلب الأول: الطفل الشاهد ومأساوية الصورة في قصة "أرض البرتقال الحزين":

توثق القصة مشهدية النفي لأسر فلسطينية من مدينة "عكا" إزاء توصيف مقتضب للآخر الإسرائيلي الذي لم تبرز ملامحه، ولا أعداده ولا أسلحته فاقصر حضوره في ملفوظ خطابي قصير "ساعة انسحب اليهود متوعدين مزريدين"¹¹ وهذه الصورة البصرية تضم صورة أخرى اعتيادية متكررة غيّبت تفاصيلها لتواترها عبر الموروث السياسي فما تركه الاستعمار من توثيق مرجعي لسلوك الآخر المتسلط سياسيا وعسكريا، برر إضمار صفة التعيين بجمل طويلة مكثفة في حضورها. وهذا الوعيد ونبرة التخويف حقّق نقطة فارقة حدّدت زمنيا بليلة الهجوم على "عكا" دليل ليلة من الليالي المشكّلة للموضوع الدينامي المبين في الخروج المخطط له ايدولوجيا والمكرر لفظيا مرتين "ساعة انسحب اليهود"، مخلفا شعورا بالضعف والعجز والخوف مما دفع بهم لتسابق الزمن والسرعة في جمع أمتعتهم حتى تحولت أجسادهم في صورتها إلى مجرد فضلة مثلها مثل الأشياء الصامتة "رأيت أمك تصعد إلى السيارة، ثم خالتك، ثم الصغار، وأخذ أبوك يقذف بك وبإخوتك إلى السيارة، وفوق الأمتعة، ثم انتشلني من زاويتي، ورفعني فوق رأسه إلى القفص الحديد في سقف غرفة السائق"¹² هنا تتفعل الرؤية البصرية للراوي الطفل وتوصيفه لأفعال الحركة المستمرة والمتتابعة لوضعية الشخصيات وموقعها على مستوى المتتاليات السردية، "فالقذف" يكون للأشياء المادية والتي تشكل أقل قيمة لأنه رمي تصاحبه قوة وعدم المبالاة في تغيير شكلها أو فسادها، أما الأشياء الثمينة فإن الإنسان يكون حريصا على الحفاظ عليها وانتقاء موضعها. لكن الكاتب خرق القاعدة الدلالية للفعل واسناده للشخص حتى يتغير مقامه، ويتحول إلى شيء لحظة فقدان لهويته وموطنه، وهو انعكاس لشعور الأب باليأس والخوف من خطاب التهديد الذي ضاعف من سرعة عملية النفي، وأفقده القدرة على التمييز بين الأشياء وأولاده، ولكن الشعور بالملكية بقي

في وعيه يتحرك اتجاه الفعل. فما قذف وانتشل داخل السيارة كان جزء من حياته وبيئته، لكنه عجز على قذف أشجار البرتقال لأنها أعمق من أن تنتزع من أرضها وطبيعتها. في المقابل يبرز فعل "الانتشال" الذي توصف به جثة الميت المتوقفة عن الحركة والنص بانحرافات الدلالية غير من وضعية الطفل الحي بحركة انتشاله من طرف والده وهذا ما يدل على أنه يشبه الأموات في صمته وذهوله اتجاه مصير مجهول ضبابي، مما منح للمقطع السردي قيمة شعورية حزينة تحرك الأفعال وتغير معانيها استعاريا. ثم يتغير مجال الرؤية البصرية للراوي الطفل عندما يتوقف الفعل الموظف لوصف عملية النفي. وينتقل نحو تتبع حركة السيارة وانطلاقها إلى مدينة "صيда" فيبدأ الطفل بتسجيل بعض الصور التي التقطتها عينه قبل الدخول في حدود جغرافية ستشكل تيمة اللانتماء لشعب بأكمله.

إن الشعور بالضياع و الألم يأتي من واقع فقدان الإنسان لأرضه برائحته وأشجارها وبيوتها، لذا فالموضوع الدينامي يميل إلى كونه تساؤلا للوجود من حيث أن الأرض هي شرط الوجود مخزنة في الذاكرة بصورها الحسية الحية و المشحونة بمختلف المشاعر والأحاسيس، فيأتي التوقف (النزول) للحظة زمنية حزينة وقصيرة كي يعمق من شعور الانفصال تتبعها رؤية الذات المتلفظة المؤشر عليها بضمير "أنا"، الطفل الراوي لصورة جماعية لنسوة فلسطينيين لاجئين حاولن أخذ حبات البرتقال باعتبارها أيقونة حسية توصف كعلامة تقوم على مبدأ المشابهة بين العلامة و مدلولها أو مرجعها¹³ والتي ستشكل مسارا ذهنيا قويا يؤثر على مجرى الأحداث "نزلت النسوة بين الأمتعة و توجهن إلى فلاح كان يجلس القرفصاء واضعا سلة البرتقال أمامه مباشرة وحملن البرتقال. ووصلنا صوت بكائهن... بدا لي ساعتذاك أن البرتقال شيء حبيب (...) و نزل أبوك من جانب السائق مد كفه فحمل برتقالة منها ...أخذ ينظر إليها بصمت ...ثم انفجر يبكي كطفل بائس (...) وعندما وصلنا صيدا، في العصر صرنا لاجئين"¹⁴ إن الموضوع الدينامي

الثاني المشكل للمسارات السردية اللاحقة للقصة هي " حبة البرتقال " الوحيدة والمنفصلة عن باقي حبات برتقال النساء، لأنها علامة أيقونية تخضع للتجربة الفلسطينية والتي تُمثل أمام المتلقي عن طريق شبكة غير محدودة من العلامات التي تدرك كهوية مسننة بمجموع العلاقات، والتي توصف على أنها علامة لها سننها ونمط اشتغالها على مستوى المؤولات المناسبة للأدلة المظهرة التي تنطلق من الرؤية الحسية لحبة البرتقال بعد عملية النفي والوصول إلى مكان جديد أصبحت فيه الأسر الفلسطينية لاجئة.

طرح المقطع السردى فكرة البتر المأساوي للروابط الاجتماعية والإنسانية لأن كل بعد عن الوطن والأرض يعتبر نفيا، لكن مع دخول العائلة الفلسطينية حدود مدينة لبنان "صيда" حتى أصبحت لاجئة، وقد حدد الفوارق بين المصطلحين "ادوارد سعيد" بقوله: "المنفي يجد أصله في عمليات الطرد القديمة جدا، وما إن يطرد حتى يعيش المنفي حياة شاذة و بائسة موصوما بوصمة الخارجي، أما اللاجئين فهم نتاج دولة القرن العشرين ،ولقد غدت كلمة "لاجئ" كلمة سياسية، تشير إلى أسراب كبيرة من الأبرياء الحائرين الذين يحتاجون إلى مساعدة دولية عاجلة¹⁵". يرجع هذا التباين للحالة التي يكون عليها الفرد ومكان تواجده سواء أكان منفيا أو لاجئا، لأن نقطة التلاقي هي البعد عن الوطن، وهذا ما سعى "غسان كنفاني" تقديمه للمتلقي في أن تعدد المصطلح لا يخفي تلك العوالم التي يتجرد فيها الفلسطيني من هويته وكيونته لحظة عبوره للحدود.

2.4 المطلب الثاني: الطفل بين تغيير المشهد ومركزية الأيقونة:

يتمركز الطفل الراوي في خريطة السرد لقصة "أرض البرتقال الحزين" كمكون حكاى مركزى رغم هامشيته من طرف السلطة اليهودية فإنه يمثل عين الحقيقة يتتبع تأثير النفي في وجوه أسرته وقراراتها" كان أبوك قد كبر عن ذي قبل وبدا لي كأنه لم ينم منذ زمن طويل (...). كان واقفا في الشارع أمام الأمتعة الملقاة على الطريق، وكنت أتخيل تماما أنني إن سعيت إليه لأقول شيئا ما فإنه سيفجر في وجهي: يلعن أبوك... يلعن. كانت هاتان الشئمتان تلوحان على وجهه بوضوح¹⁶" إن ما تظهره الذات هو

رفض للتحييد والانزواء إلى ركن مظلم مهمش يكاد ينطق بلغة ساخطة تضمر عجزه واستسلامه، ينظر ما وراء التلال والطرق الملتوية أي مصير ينتظره هناك وعائلته، فتتحول كل العلامات المرئية إلى أسئلة مستفزة تبحث عن إجابات حركت سرديّة الطفل في توصيف معاناته.

تستمر الأحداث في مدينة "صيدا" ببطء شديد وكأن الحياة أصبحت فارغة من لذتها ومتعتها، تضاءلت فيها الحركة وأصبح محورها هو تشغيل حاسة الرؤية البصرية للطفل الراوي، وهذه الاستراتيجية في قصة "غسان كنفاني" تؤكد أن لغة العيون أقوى من أية لغة لأن المتكلم بالألفاظ يمكن أن ينمق ألفاظه أو يزورها، (...) ولكن العيون لا تكذب ويمكن الاستدلال بها على ما في الضمير¹⁷ وبخاصة عندما تكون العين هي عين الطفولة في الزاميتها بصدق المشهد وتتبع أهم ما يثير الانتباه وتوصيله عبر قنوات تواصلية بلاغية، ووصفية تفصل بين مكان متروك وآخر تم اللجوء له، فتتغير معه مستويات اللغة التي تشير إلى إحداث نقص وتشظي في الهوية وهو من آثار النفي؛ أي أحد مداخل السياسة اليهودية التي تضعف بها قوة الذات الفلسطينية وتزعزع أهم الثوابت وهي ملكية الأرض، وبالتالي تعطيل أهم خاصية وجهرية للإنسان هي الطاقة الفعلية والإنتاجية لزراعة أشجار البرتقال، والتي تنمي الشعور بهوية الذات. والانفصال عنها يفقدها التوازن وتكون على حافة الموت والرغبة في الانتحار "ولكنني أذكر أنني عندما رأيت المسدس الأسود ملقى على الأرض بجانبه. فهمت كل شيء...وبدافع من ذلك الرعب القاتل الذي يصيب طفلاً شاهد غولاً على حين غرة.. أخذت اعدو في الجبل.. هارباً من الدار¹⁸

إن مجاورة مكان خاو وفارغ يفكك العقد الاجتماعي، والالتزام بقوانين الحفاظ على أراضي البرتقال. وسياسة اليهود على يقين بهذه العلاقة الإلزامية التي ينمو ويتنفس من خلالها الشعب الفلسطيني، وتمزيقها هو الموت البطيء. لذا "فقصة أرض البرتقال"

على شفافية الحدث وعمق الدلالة في تصوير الخضوع لأوامر اليهود، فإنها تضمّر نسقا استبداليا رافضا، عبر ثنائية ضدية بين كهولة مهزومة في الأراضي الفلسطينية وطفولة على مشارف وطن جديد مستعار هو لبنان. "كنتم مكومين هناك بعيدين عن طفولتكم كما كنتم بعيدين عن أرض البرتقال...البرتقال الذي قال لنا فلاح كان يزرعه ثم خرج أنه يذبل إذا ما تغيرت اليد التي تتعهده بالماء (...). رأيت في الوقت ذاته المسدس الأسود على الطاولة الواطئة...والى جواره برتقالة ... وكانت البرتقالة جافة يابسة¹⁹ تنقل عين الطفل في هذا المشهد المأساوي انهيار الأب واقتربه من الموت نتيجة الظروف القاسية التي تنتظره مع عائلته، والتي أفقدته أمل العودة إلى "عكا" في مقابل موقف المجتمع العربي الإسلامي والفلسطيني من القضية الذي أضمر في النص القصصي، وهذا ما يؤكد موقف "غسان كنفاني" الإيديولوجي من خذلان الآخر على اختلاف دياناته وأجناسه. فالشعور بالإقصاء والاعتداء على الذاكرة الجماعية الفلسطينية تقابلها ذاكرة حقيقية مسيجة بالوجع الطفولي للراوي وأخواته، فحبة البرتقال وإن كانت علامة أيقونية تقويم تشابها مرجعيا فهي رمز اللذة الزائفة كفاكهة قابلة للتعفن والانكماش وهي رمز الشتات.

خاتمة: في خاتمة هذه القراءة نخلص إلى النتائج التالية:

- غلبت على قصة "غسان كنفاني" الخط الواقعي للوجود الفلسطيني وبلورته بأسئلة مصيرية بنيت على تأريخ المنفى لسيرته الذاتية، وفي الوقت ذاته هي تأريخ لمعاناة الشعب الفلسطيني بعد النكبة الفلسطينية 1948. والإيماءات المفتوحة على نهاية القصة برمزية ثقافية لحبة البرتقال هو الذي سينتج قراءات متعددة تراهن في دلالتها على سياقات وایدیولوجیات متضاربة.
- تضمّر "قصة أرض البرتقال الحزين" نسق الرفض والمقاومة على مستوى حفظ هذه التجارب من النسيان والاضمحلال في تسريدها حكايا في كتابات "غسان كنفاني".

• تتسرب الإنزياحات البلاغية والخطابية على مستوى اختيار حبة البرتقال رمز للذة الزائلة خارج حدود الخطاب التخيلي، لتكون معادلا موضوعيا على شتات الشعور الداخلي وفقدان الفلسطيني المنفى للأمان، مقابل تغييب الآخر اليهودي وطمسه كشخصية غائبة حسيا، لكنها حاضرة في قوة الفعل وعنفه وتأثيره السلبي التي يستوجب مقاومتها ما بعد المنفى الذي أصبح مسؤولية الطفل الراوي وكل أطفال الفلسطينيين.

قائمة المراجع:

- أحمد بهاء الدين شعبان، غسان كنفاني حرب على الخيانة ودرس في معنى الأدب الثوري، ص: 16.

- ادوارد سعيد، الآلهة والمنفى التي تفشل دائما، ترجمة: حسام الدين خضور دار التكوين للطباعة، والنشر والتوزيع، بيروت، دمشق، ط1، 2003، ص: 6

- خالد إسماعيل، غسان كنفاني حرب على الخيانة ودرس في معنى الأدب الثوري، مجلة الهدف، دائرة الإعلام المركزي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، العدد 40، أغسطس، 2022، ص: 13

- الرويلي ميجان، والبازعي سعد، دليل الناقد الأدبي، ط2، لمركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص: 109.

- سعيد إدوارد: تأملات حول المنفى ومقالات أخرى، تر: ثائر ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، 2007، ص: 126.

- طه الوادي، الرواية السياسية، د ط، دار النشر للجمعيات المصرية، دت ص: 09.

- عالية أنور أحمد الصفي، شعرية الأمكنة في روايات يحيي خلف دار المعز، للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2015، ص: 19.

- عبد الحميد هيمة، علامات في الإبداع الجزائري، مدرسة الثقافة والحفلات،

سطيف، الجزائر، ط1، 2000، ص: 64

- عبد الله إبراهيم، الكتابة والمنفى، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، 2012، ص: 40.
- غسان كنفاني، أرض البرتقال الحزين، ط 4، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت لبنان، 1987، ص: 07.
- كمال عبد العزيز إبراهيم، لغة الجسد في القرآن الكريم العين والوجه واليد أنموذجا دراسة بلاغية، ط1، الدار الثقافية للنشر القاهرة، 2010، ص: 06.
- محمد برادة، الذات في السرد الروائي، ط1، دار أزمنة، عمان، 2010، ص: 30.
- وادي فاروق، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1981، ص: 34.
- الهوامش والإحالات.

- 1- ينظر: خالد إسماعيل، غسان كنفاني حرب على الخيانة ودرس في معنى الأدب الثوري، مجلة الهدف، دائرة الإعلام المركزي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين العدد 40، أغسطس، 2022، ص: 13.
- 2- ينظر: ادوارد سعيد، الآلهة والمنفى التي تفشل دائما، ترجمة: حسام الدين خضور ط1، دار التكوين للطباعة، والنشر والتوزيع، بيروت، دمشق، 2003، ص: 60.
- 3- ينظر: عبد الله إبراهيم، الكتابة والمنفى، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، 2012، ص: 40.
- 4- ينظر: أحمد بهاء الدين شعبان، غسان كنفاني حرب على الخيانة ودرس في معنى الأدب الثوري، ص: 16.
- 5- ينظر: طه الوادي، الرواية السياسية، د ط، دار النشر للجمعيات المصرية، دت ص: 09.
- 6- ينظر: محمد برادة، الذات في السرد الروائي، ط1، دار أزمنة، عمان، 2010، ص: 30.
- 7- غسان كنفاني، أرض البرتقال الحزين، ط 4، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت لبنان، 1987، ص: 07.

- 8- عبد الحميد هيمة، علامات في الإبداع الجزائري، ط1، مدرسة الثقافة والحفلات، سطيف، الجزائر، 2000، ص:64
- 9- عالية أنور أحمد الصفدي، شعرية الأمكنة في روايات يحيي يخلف دار المعز، للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2015، ص:19.
- 10- وادي فاروق، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، 1981، ص:34.
- 11- غسان كنفاني، أرض البرتقال الحزين، ص: 73.
- 12- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 13- الرويلي ميجان، والبازي سعد، دليل الناقد الأدبي، ط2، لمركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، 2000، ص:109.
- 14- غسان كنفاني، أرض البرتقال الحزين، ص: 74، 75.
- 15- سعيد إدوارد: تأملات حول المنفى ومقالات أخرى، تر: ثائر ديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، 2007، ص:126.
- 16- المصدر نفسه، ص:75.
- 17- كمال عبد العزيز إبراهيم، لغة الجسد في القرآن الكريم العين والوجه واليد أنموذجا دراسة بلاغية، ط1، الدار الثقافية للنشر القاهرة، 2010، ص: 06.
- 18- غسان كنفاني، أرض البرتقال الحزين، ص:79.
- 19- المصدر نفسه، ص:80.